دارنا الكبيرة

قصة بقلم عائدة مطرجي ادريس

ايها العملاق الذي اعتدنا ان نتوجه اليه كلما عصفت بنا الرياح ، وتحطمنا ، ومزقت احشاءنا مخالب النسور ، ثم تحالفنا مع النسور لامتصاص اخر نقطة دم قد يتشربها التراب . انطعم الدم بات لذيذا مسكرا .

ايها العملاق ، قصتنا ، قصة اسرتنا ، مأساة نعيشها ، سنقصها عليك ، لا لانك تجهلها ، ولا لانك لاتعيشها مثلنا ، بل لاننا بحاجة الى ان نتحدث عنها ، لان لا شيء عندنا نتحدث به الاها ، ولان صمتنا يقتلنا. أمن الغريب ان يغدو الكلام دواء البشر ؟

* *

منذ سنين ، عرفنا اليتم ، ومنذ سنين تحالف القدر علينا . كانت لنا دار كبيرة ، كبيرة جدا ، وكانت محصنة ، كأنها القلعة . وكان ابونا ينفق كل وقته وجهده وماله لتأمين حراستها . انه لايملك سواها ، زادا لاطفاله في المستقبل القريب . وكان ابونا شيخا ، وكثيرا ماكان يهب في الليالي الكالحة ، ويطل من نافذته ومن نوافذ الممرات العديدة ليتفقد الحواجز . لم يكن في تلك الفترة يخشى لصوصا من قريتنا ، لانه لم يكن ثمة من يجرؤ، مهما بلغت به الشجاعة ، على ان يقترب من دارنا ويحط رحاله فيها ويشردنا. لقد باتت تلك الفكرة مستحيلة ، واصبحت الدار مقصدا لكل من يريد الموت . ذاك ان عائلته العريقة في القدم ، قد حوت ابطالا عرفوا كيف يحمونها بدمائهم . وما يزال اهل القرية يذكرون جدنا ، جدنا العملاق الذي وقف من على البرج يوزع الموت قبل ان يتسلل الى دارنا . تلك كانت معركة فاصلة في تاريخ اسرتنا لم تعد بعدها تخشى اي تسلل بشري من حولنا .

واذن ، فقد كان ابونا يخشى خاصة الكلاب الكبيرة ان تتسلق الحواجز فتحطم النباتات الطرية التي كنا نقتات منها في الصيف ونخزنها للشتاء .

واصبح ابي ايضا يخاف من غرباء خارج قريتنا كان عددهم يزداد يوما بعد يوم . كانوا يتوافدون على دارنا ، ويشيدون بعظمة والدنا، هذا الذي يستطيع ان يشرف على كل شيء يتعلق بنا ، حتى حراثة ارضنا وزرعها . وكان والدنا ،طيب القلب ، ساذجا بعض الشيء،فقد كان كثيرا مايلبي رغبات زوارنا في التجول عبر الارض الكبيرة التي تحيط بدارنا . وكانت اسعد اوقاته ، تلك التي كان يتقدم فيها امام ضيفه فيدله على ماغرست يداه ، وعلى مواطن الخير الذي لاينضب ، والذي سوف يزداد عندما تتصلب سواعد ذريته الكبيرة .

واتت فترة ، لم يعد يعرف فيها والدنا طعم النوم . كانت الوساوس والشكوك تنخر في جسده الهرم ، بعد ان نخرت ضميره . ترى ما معنى كثرة الزوار تلك ؟ اترى يكون فيهم من ينوي استلاب ارضه وداره والمكر به ؟ لم يكن والدنا يخاف رسول الموت خوفه من تلك الصورة الرهيبة التي تمثل اطفاله مشردين خارج اسوار افنت اجيالا ولم تفن بعد، محافظة على شرف العائلة ان يلوث .

وذات مساء ، جمعنا والدنا . كنا كثرة ، وجلسنا دائرة كبيرة حوله . وكانت امنا معنا . كان يتكلم بانطلاق غريب لم نعد نألفه في الفترة الاخيرة ، وقد ضعفت قواه ، لتحل محلها في حماية الدار سواعد اخوتنا الفتية . كان ابي يندفع ، كأنما كان يتلو علينا درسا مابرح يدرسه ويعيد حفظه منذ سنين ، وكان منا من ينتبه الى كلامه ،ومنا من كان يستمع ولا يعي شيئا ، واكثرنا كان يتضايق من هذا السكوت الطويل الذي كان يفرض علينا ، كلما اجتمعنا ..كان اكثرنا صغارا،وكانت امي وحدها تتلقف كلمات ابي بأسى . كانت عيناها تلتمعان . واحسسنا ذات لحظة بدمعات تنسكب على وجهها الشاب . كانت امنا تصغر والدنا بكثير ... وكانت ذات جمال آخاذ ، وشخصية قوية عرفت كيف تثير اهتمام والدنا وثقته حتى اصبح لايبت بامر من غير ان يرجع اليها . وكانت تحب ابي وتفهمه وتتفانى في خدمته ورعاية اطفاله وداره . وعندما تكلم والدي ، احسسنا ان في الجو شيئا غير مألوف . فهرعنا كلنا ، والتففنا حول امنا . كانت ملاذنا . وكنا نشعر امامها بالدفء والامان . ولكنها صدتنا تلك اللحظة ، فآلمنا صمتها المفاجيء وعدم اكتراثها بنا . ان اهتمامها كله ينصب الان على والدنا . فقد كان العرق يتصبب من جبينه . وكان له وجه غريب ، وجه صارم ، حزين ، وسمعه بعضنا من غير ان يفقه ماكان يقول : « تلك الدار امانة في عنقك ، حافظوا عليها . ان حسادنا كثر والارض التي تحيط بها ثمينة،ثمينة.» وتردد لحظة ثم اضاف وهو يهمس لامي : « لقد اكتشفت فيها ينبوع ماء . سيغنيكم من كل فقر قد يهددكم ، ولكنني اخشى عليكم منه.. فربما انتزعت منكم بسببه او ... »

ولم يتم والدنا كلامه ، ففارق داره وارضه وعائلته ، تاركا للايام ان تعقد مصيرنا وتتم مخاوف لاشك انها لامست خاطره ، في لحظة الصفاء تلك ، ولكنه استفظع وقوعها .

وكبرنا ، وامنا وحدها ترعانا ، وكنا نعمل جميعا في ارضنا ،ونقتات كما كنا في عهد والدنا ،من خيراتها .وكان النبع مصدر حياتنا الجديدة.

وذات يوم ، طرق بابنا زائر غريب . طلب ان يجتمع بامنا ، فقد سمع عنها الكثير . ولم يكن لامي بد من استقباله . فنحن لانسد الباب في وجه الضيوف . وتحدث زائرنا عن ابينا وانبعثت ذكريات ، وجالت فى انحاء الغرفة اطياف متنوعة لشخصية الراحل، فعاود امي الحنين، واستشعرت الذنب لنسيانها ذكراه ، فيما هي غارقة في حياتها من اجل ذكراه .. ولم يكن الزائر يريد من هذه الزيارة سوى تفقد عائلة صديق احبه ، وان لم يجتمع به كثيرا .

واخذ الزائر يتردد على منزلنا ، فنرى فيه وجه الرجل الذي حرمنا رعايته .

وكان الزائر يحب اخي الاكبر ، او هذا ماكان يقوله .. وكان يقدر فيه رجولته المبكرة ورصانته . وذات مرة ، صرح لامي بانه يلمس فيه نفحات العبقرية . وكان اخونا الاكبر بالفعل ذا شخصية شبيهة بشخصية امي القوية . وقد ظل متعلقا بنا كما لو كان طفلا.وكنا جميعا قلبا واحدا تحرسه امنا . ولكننا كنا نرى في اخينا رجل احلامنا الذي سيعيد الى دارنا زهو الشباب وصرامة الرجولة . وكانت امنا تشجعنا على ذلك . فقد كانت تثق به وتعوده على تحمل المسؤوليات التي ستلقيها عليه . فلقد تعبت وجاهدت اكثر مما تتحمل ، وينبغي لها أن ترتاح بعض الشيء .

ولم يكن لامي نصيب من الراحة . فهي ابدا عرضة لازمات نفسية حادة فضلا عما كانت تقوم به من اعباء جسدية كانت تضنيها . كانت اسرتها كبيرة جدا . وكان لكل فرد منا مشاكله الخاصة ، وكان لامي مشاكلنا جميعا .

على انه لم يسبق لها ان تعرضت لازمة كالتي تواجهها الان.كانت مشاكلنا السابقة ، على حدتها ، صبيانية ، كان تدخل امنا غير المنحاز

يكفي لحلها .

تلك اللحظة ، كانت امنا تجلس امام موقد النار، وكنا جميعا نياما . ولكن قطعة الخشب لم تكن قد اشتعلت كلها ، فبامكانها اذن ان تتابع سهرها للتفكير في شؤوننا ، انها الساعة التي تهدأ فيها وترتاح اعصابها فتجد لنا الحلول . وكان اللهب الاحمر يتصاعد نوره في الظلمة والهدوء فيعكس خيالات على الجدران كانت تكبر وتكبر حتى تتخذ اشكالا كانت امنا تتعرف عليها ، نارجيلة ابي المشوقة العنق ، كتابه في مدح النبي ، محراثه ، عصاه ، ـ وكثيرا ماكانت امنا تكمل الصورة وهي تمعن في التحديق ولم تكن قط تحاول ان ترى فيها صورة ابينا . كان ابونا بالنسبة لها روحا طارت الى الخلد ولن تتجسد بعد ، وكانت تخاطبه في الظلمة فتشعر بالفة غريبة ، تشدها اليه وتؤنسها في وحشتها . وكانت تسمع صوته ، بعيدا ، عميقا ، حنونا ، عذبا . كانت تشركه في همومها وتتلمس منه ان يساعدها ، ولم يكن يضن عليها بطلب ، كانت بعد لحظات اللقاء تلك ، تتساءل ، وقد سيطر عليها منطقها : امن الغريب ان تظل الارواح وفية للاماكن التي احبتها فتزورها كلما اشتد بها الحنين او كلما اشتد حنين الاخرين اليها ؟

ولكن عبثا حاولت امنا تلك الليلة ان تسمع هذا الصوت الاليف بالرغم من انها كانت تناديه بحرارة والم وتبكيت ضمير ، ترى هل اساءت اليه ؟ واحست برعشة وبخوف ـ وبظلمة تجتاح نفسها ،وهبت الى النور تشعله ، ان النور ، كما كانت تتذكر منذ طفولتها يطرد الاشباح الرهيبة ، ويخرس اصوات المقابر وساكنيها ممن حلت عليهم لعنة الملائكة . اما الارواح الطاهرة ، فلا تهرب ،لانها هي نفسها نور ، ونادت ابانا ، فلم يجب ، فهبت مذعورة . ووقفت امام النافذة تحاول ان تنفذ خلال الظلمات التي باتت مألوفة فيمثل تلك الساعة المتاخرة منذ ان توفي والدنا . كانت مضطربة ، وكانت تحس ان في الجو شيئا كدرا ، وكان في الحديقة بصيص نور . وتقدمت والصقت انفها بالزجاج تختصر المسافة بينها وبين خيالين كانا مبهمين ، ثم اخذا يتوضحان .. وهرعت على رؤوس اصابعها ، اية شجاعة هي التي تدفعها عبر الظلمات ، وخيالات الاشباح والرؤى التي تعمر رأسها ؟ ورفعت منديلها ، وتخطت المخاطر ، وطارت ، خفيفة ، كالارواح . كان النداء البعيد يدعوها اللحظة ، وكان نداء منبعثا من اعماق الزمن ، ومن اعماق الارض ، ومن اعماق قلبها . وانحنت كالنسيم ، تحت الاعشاب المرتفعة ، كانت تنصت في السكون، وكان الهمس يصدي . وعرفت الزائر الغريب والابن الحبيب .والتقطت الحوار الذي دار بينهما . كان الزائر يؤمل ويهدد ويغري . كان يفرش امواله . وكان يبعث صور الدمار والفناء في دارنا ، وكان ينصبه سلطانا او يجعله عبدا . كان مصيره كله مرتبطا بكلمة : دارنا الكبيرة . ما مصيرها ؟ اليس هو رب الاسرة ، فلماذا لايبت في امرها ؟ اليس هو أشد اخوته تجربة وصلابة وعناء ؟ الم يضح اكثر من سواه ؟ منذ طفولته وهو يحمل على كاهليه اعباء تلك الاسرة التي تيتمت ، فخدمها بكل جوارحه وبكل قواه . فلمن يكل امر حراسة الدار ؟ أالى اخوته الفتيان ؟

كان اخونا يستمع . وكان يبدو مقتنعا بما يقوله الزائر . ولكنه ابى ان يستقل حبه وخدمته للدار . وانتفض ، وانتفضت معه امنا. وفر . كان يبكي . وكان يخشى ان يتسلل الشك والصدع الى اسرتنا لم يسبق ان فكر على هذا النحو قط . ولكن الرجولة تيقظت لديه . قال لزائرنا ، بصوت سمعته امنا : لن يستطيع احد ان يفرض علينا البت في امر دارنا . وانا لن ابيع الدار . لن اخون عهد والدنا المقدس سأقف حتى ولو اصبحت وحيدا ، دارنا يجب ان تصمد .

واحست امنا بشيء رطب يبلل وجهها ، حاولت ان تلحق بأخينا، وتغمره بذراعيها . املها الاخضر تتفتح براعمه وتزهر وتثمر . ولكن فرحتها لم تكد تعمر قلبها حتى رأت الغريب يستقبل ابنها الاخر ، ثم الاخر ، ثم الاخر وكان سؤال وحيد يترجع : ما مصير الدار الكبيرة ؟ اين انتم ، وعددكم هذا الضخم ؟ اتتركون الامر كله لاخيكم من دون ان يكون لكم أي رأي او اية مشاركة ؟ ان الدار لكم جميعا ، فلماذا لاتبتون انتم ايضا في امرها ؟

واحست امنا ان بعض اخوتنا ينصتون . وكان الزائر محقا في اقناع اخوتي الصغار في وجوب المشاركة لحماية دارنا الكبيرة . ورأت العزم عند بعضهم في مد يدهم اكثر من قبل في مساعدة اخينا الاكبر وضم سواعدهم الى ساعده ، واحست امنا ، بالطبع ان ليس هذا ماكان يقصده الزائر . ولكن البعض الاخر من اخوتنا ، كان يحس باستقلال في الشخصية وبانهم يأبون ان يكونوا ظلا لاخيهم ، وان كانوا يحبونه ويثقون به . ان الدار ، دارهم جميعا ، أجل ، وهم يطلبون الحق ايضا في حراستها ، وعلى طريقتهم.ان التجربة لم تتح لهم بعد ليعطواالدارنصيبهم من العطاء . وان ذلك لايمنع من ضم ذواتهم الى ذوات امهم واخيهمولكنها دائره مفرغة تلك التي يدورون فيها .

عرفت امي ، وهي تعود الى الدار ، مثقلة القدمين ، دامية القلب، لماذا لم يكن الصوت الذي كانت تناديه يرد عليها . لاشك في انه هو ايضا كان حزينا،وكانت رؤياه الاخيرة على وشك ان تتحقق ، لقد تفجر الماء في الارض الكبيرة ، ولكن مياهها توشك ان تغمر الدار .

وعاشت امنا القلق كما لم يعشه انسان ، وكانت تشهد تفكك الاسرة الصامت يوما بعد يوم . وكادت الدار الكبيرة ان تصبح اجنحة مستقلة وكانت امنا تعجز ان تتحاز . حتى الشقي منا ، كان ابنا لها . وكان شقاؤه يحفر في نفسها اخاديد من الالم المكبوت . وكانت تلازم صمتها في موضوع الخلاف لئلا تعمقه ، ولكنها لم تكن تكف عن الصلاة : ربي اهد اولادي وصف قلوبهم ، ربي طهّر قلوبهم .

ولكن امنا اليوم تبدو أعجز من ان تصمت او تكتفي بالصلاة . كانت ترى مشهدا رهيبا . كانت ترى السيوف تلتمع في الشمس التي انبتت خيرات ارضنا ، وكانت تراها توشك ان تسقط على السواعد الحبيبة ، وتفجر الدم الاحمر في ناظريها . فلم تتردد لحظة : لقد انتزعت السيف المتعطش الى الدم والى المزيد منه : من اي صدر ترويه ؟ ورفعته الى قلبها الذي يتفجر من شدة النبض . لم تعد تقوى على الصراع الذي نخرها وادماها . ولكن اخانا الاكبر انتزعه منها ورمى به خارج اسوار الدار ، وركع على قدمي أمنا . وأقسم لها بالا يخون العهد . الدار ستظل دارنا جميعا . ولن تروى ارضنا الحبيبة من دمائنا الا اذا فرض علينا القتال من قبل اعداء لنا .

والتف بعضنا حول اخينا . وظل قسم منا بعيدا ، وحار الاخرون. اننا نحبكم جميعا ، فلماذا تفرضون علينا نزاعكم ، ياأخوتنا وفيم نزاعكم ؟

اننا ندعوكم ، نحن البسطاء فيكم ، ندعوكم يا اخانا الاكبر ، يامن فهمت سر نداء ارضنا فلوحتك شمس صيفها المحرق ، وصلبت عضلاتك رياح شتائها المقرور ، كيف تعيد الينا الراحة وتحتبس الدم الحبيب من ان يهدر . لقد نمى والدنا سواعدنا لتفتك بالغريب الذي سيسلبنا دارنا ان نحن تفككنا ، دارنا التي ورثها منذ الازل واورثنا حبها نقيا طاهرا. اننا نشتاق جلساتنا الاولى ، يوم كنا نلتف حول والدنا ، كنا صغارا . ولكننا كا متحابين . ليتنا اليوم ايضا نرتفع بصوت واحد مخلص واع ونحن نلتف حول امنا واخينا الاكبر . بايعناك ياأخي ، واننا واياك على العهد نستميت .

ولكن الصوت كان يتخلله بعض النشاز ، وساد صمت عميق ،سمعنا بعده صوت امنا المرتجف : كنا نحس فيه نبرات صوت والدنا الحنون ، نبرات عمقها الزمن والفراق الطويل الطويل ، لكأن نبرات صوت ابي كانت صدى الاجيال المتلاحقة ، واقتربت امي من اخينا الاكبر وطبعت على جبينه قبلة محروقة . وكانت تودعه فيها السر ، سر بقاء دارنا بالرغم من جميع العواصف التي كادت تقتلعها . والتفتت الينا جميعا وجمعتنا حولها وارتفع صوت امنا ، الصوت المنبعث من اعماق الزمن ومن اعماق الارض ، ومن اعماق قلوبنا : كونوا كالبنيان المرصوص ،هدفكم في الحياة واضح ومشترك ، حماية تلك الدار الكبيرة ، والتفوا حول اخيكم وتشاوروا ولا تتفرقوا ، أتشكون في حبه ومقدرته ؟ لا . لم يكن المؤمنون الذين اتبعوا محمدا وحاربوا معه من اجل الله عبيدا له ، بل كانوا انصارا .

عايدة مطرجي ادريس